أشعــــــــــار

بقلم د/ أحمد خالد توفيق.

دراســــــــــات

بقلم د/ أحمد خالد توفيق.

1-صـــــــديقى .

لأني لست مثل الناس

في حزني وفي مرحي

أتيت إليك دون الناس

أطوي في يدي جرحي

****

ولا تسأل لماذا أنت

في الأحزان أختارُ ؟

أولي عنك في مرحي

وارجع حين أنهارُ ؟

****

ولا تسأل علام الحزن

لا تسأل .. فلا جدوى

ولو أني عرفت الرد

ما صارحتك النجوى

****

شعرت بوحدة رعناء

تسري في شراييني

وخوف ماله معنى

يجوب النفس .. يغزوني

أجوب الدرب كالمأفون

أقتات الدجى وحدي

وأقرع كافة الأبواب

سحقًا !!.. لست استجدي

****

إذا بالكل – كالأوهام –

في الآفاق قد ذهبوا

فلا يبقى سواك اليوم

يصغي حين انتحبُ

****

تعال إلي حدثني

ومازحنى لكي أنسى

نكاتك تقتل الأحزان

تحفر للردى رمسا

****

تحدث عن هراء الكون

في حب وإطراء

فأنت جنين هذا الكون

لا من عالمي النائي

****

تكلم دونما حرج

ولا تعنى بألفاظك ..

فما من أجل سحر اللفظ

تعشق مهجتي بابك

وناولني إذا أحببت

بعض لفائف التبغ

سأسعل مثلما الأطفال

فاضحك !.. ذاك ما أبغي ..

****

أريد اليوم أن أجتث

كل براثن الماضي

سأترك معول النسيان

كي يعنى بأنقاضي ..

****

لأني لست مثل الناس

في قولي وفي فكري

أتيتك باحثًا عني

وعن بيتين من شعري..

أحمد خالد توفيق 1984

2- شـــــيكيتيـــتا .

(ترجمة لأغنية شهيرة لفريق آبا)

أبصرت في عينيك بحراً من أسى

أمواجه أودت بسحر بشاشتك ..

أبصرت آلاف الهموم تراقصت

إذ عربد الحزن الكريه بمقلتك ..

يا طفلتي ماذا اعتراك من الجوى

حتى ترامت في الثرى ترنيمتك ؟

ماذا اعتراك فهب طوفان الأسى

يجتاح كونك .. يستبيح بشاشتك ..؟

****

يا طفلتي .. لا لا أريدك هكذا

من دون ضحكتك التي أحببتها ..

من دون أمل في الحياة ولا رجا ..

قد كنت بالأمس البشاشة كلها..

قولي الحقيقة إنني كتف لك ..

تبكين كالطفل المعذب فوقها..

إني أحبك فاسكبي كأس الأسى

في مهجتي فلطالما قد ذقتها..

****

محبوبتي .. لا تكذبيني إذ أرى

يأساً عميقاً.. بل بحاراً من ندمْ ..

إني أحبك فاخبريني ما جرى

من قال إني لا أبالي بالألمْ ؟

قد كنت سكرى من رحيق شبابنا

قد كنت طفلاً لا يبالي بالعدمْ ..

اليوم قلبك قد تهاوى باكياً..

وانهار في بحر الدموع المضطرمْ..

****

يا طفلتي لا تجزعي.. إن الأسى

مثل الرياح تجيء .. حتماً ترجعُ ..

وسيخمد الحزن الكئيب صغيرتي

وتعود بسمتك الرقيقة تسطعُ ..

كم قد بكينا .. هل تحطمت الشهب ؟

هل غاض ينبوع الحياة الرائعُ ؟

إني أحبك كفكفي الدمع الذي

عدواه تنمو في دمي .. تترعرعُ ..

****

يا طفلتي سأكون خلاً بل أخاً..

ولسوف أعصر من حياتي بلسما..

ولسوف أغسل كل أدران الأسى

عن مهجة كانت حبوراً دائما..

وهناك في ضوء الغروب سأنحني

كي ألثم الكف الصغير مدمدما ..

هيا اشرقي كالشمس في قلب الدجى ..

عودي كما كنت الصباح الباسما ..

أحمد خالد توفيق 1983

3- عديـــــــــي .

عديـــني .. عديـني ..

إذا ما تبدلت أن تعرفيني

إذا ما تناءيت أن تذكريني

ومهما تلعثمت أن تفهميني

وحتى إذا خنت ألا تخوني !

****

عديـــني .. عديـني

إذا الروض ولى وجاء اليبابْ

إذا فر من راحتينا الشبابْ

إذا اختار شعرك لون الضبابْ

تحبين وجهي برغم الغضون !

****

عديـــني .. عديـني

إذا جفّ ينبوع شعري

أداري بلجة عينيك سري

ومهما تعثرت أن تستمري

ومهما تقلبت أن تستكيني

عديــني .. عديـني

ستمضي السنون علينا سويا

نذوق الحبور ونشقى سويا

ومادام كفاك في راحتيا

فلن يسمع الناس يوماً أنيني

****

عديــني .. عديـني

سأزهو بحبك بين الورى

وأهواك في صحونا والكرى

وأمضى بهمسك مستبشرا

وثقت بعينــــيك ...

لكن عديني ...

أحمد خالد توفيق 1988

4- حســــــــد.

(عن قصيدة للشاعر الروسي إيفتوشكنو)

اليوم أفضح للجميع حقيقتي ..

تلك التي داريتها

في أضلعي ..

منذ الصبا ..

أنا حاسد ..

الحقد يفعم مهجتي ..

والسيل قد بلغ الزبى ..

****

أنا حاسد ..

ما دام طفل لم يزلْ ..

يحبو بأروقة البشاشة يجتني عبق الأملْ ..

ما دام يمتلك الغدا..

ما دام يثمل بالجمال وليس يبكيه الردى ..

أنا حاسد

ما دام يمتلك الأفقْ ..

ما دام يمرح والسحاب ويبتغي

أن يعصر الأحلام من أيك الشفقْ .. !

****

أنا حاسد..

ما دام يمرح والرفاق ويضحكُ ..

ضحكًا صدوقًا من فؤاد طاهر ..

لا يعرف الزيف ولا يتملقُ..

أنا حاسد .

فطوال عمري لم أذق طعم الأمل ..

قد كنت نهرًا راكدًا ..

يؤوي جراثيم الخجلْ..

****

هذا الفتى ..

ما زال يمتلك الغدا ..

ما زال يملك أن يطارد كل أسراب الطموح ..

وما فقدت وما مضى ..

****

أنا حاسد ..

فلسوف يكتشف القلم ..!

ولسوف يعثر في أخاديد الحروف

على أغان لم أجدها ..

رغم بحثي المحتدم !

حتى بهذا فاقني ..

يا للألم !

أنا حاسد ..

فلسوف يقرأ ما تركت من الكتب ..

سيواجه الدنيا بإصرار الشهب ..

سيكون سهمًا من حماس ...

من نشاط ..

من لهب ..

****

أنا حاسد ..

حتى وإن حاولت أن أتصنعا ..

وأقول إني لن أعيش سوى حياتي ..

كارهًا أم قانعا..

لكنني ..

سأظل أذكر دائمًا ..

مهما تصنعت البراءة ..

أن طفلاً سوف يصنع ..

ما فشلت به أنا!

أحمد خالد توفيق 1978

5- عود الثقاب الاخيـــــــر.

هذا آخر عود ثقاب في حافظتي ..

لا تتعجل...!

يعني آخر عود ثقاب ..

آخر دفـء ..

آخر دخان في صدري ...

يعني آخر عود ثقاب

أن اتمهـلْ..

****

هذا آخر عود ثقاب في حافظتي ..

لم يتفحـم.. !

إن أحرق آخر أعوادي ..

يفنيني برد لا يرحم ..

يعني آخر عود ثقاب

أن رياح الليل الجوعى ..

قد صارت تملك ناصيتي ..

يعني ..

بل كلا .. لا أدري ..

ما جدوى حتى أن أعلم ؟

أحرقت الأعواد الأخرى ..

بالأول أشعلت شموعاً في قصة حب لا تحكى ..

والعود الثاني .. لا أذكر ..

لكني أحرقت الثالث ..

أبحث في الظلمة عن ثغرك ..

لكني لم أبصر شيّا...

العود الرابع إذ قالوا أن العسكر جاءوا خلفي ..

أحرقت بقايا أشعار تتغنى بوجود أحلى ..

جاءوا والأشعار رماد ..

سحقوا صلفي ..

عرفوا أني أملك أنفاً..

جدعوا أنفي ..

ولأني أمسك قيثاراً كي يعزف ألحاناً سكرى ..

كسروا كفي ...

ولهذا ..

في السجن المظلم ..

أشعلت ثلاثة أعواد كي أعرف ما حل بذاتي ..

****

والعود الثامن كي اشعل سيجارة تبغ ملغومة ..

أقنعني مسجون آخر أن أنشقها حتى أنسى ..

حتى أنسى ......

العود والتاسع والعاشر .

كي أحرق صورتها عندي ..

بعض البنزين على العينين سيعطي نيراناً أفضل ..

تفنى روحي ..

يصحو جسدي ..

لم يشتعل العود التالي ..

خمسة اعواد قد ضاعت كي أرسم لصديق أحمق ..

لغزاً من الغاز مجلة ..

قد كان بسيطاً في رأيي ..

لكني لم أعرف حلا...

نظفت بعود أسناني ..

ودسست بعود في اذني ..

أسقطت ثلاثة أعواد في كف عجوز يتسول ..

بضعة اعواد مبتلة ..

فلأتمهل ..

يعني آخر عود ثقاب أن قراري لن يتبدل ..

قد أحظى بلفافة تبغ ..

قد أحرق آخر أوراقي ..

قد أشعل ناراً في نفسي ..

قد أطهو شيئاً لرفاقي ..

تتساوى أفعال الدنيا في رأسي المحموم المنهك ..

أحيا ..

أو أفنى ..

أو أعشق ..

لا أعرف شيئاً في العالم يستأهل أن تقدح ذهنك ..

لم أتردد ..

لامست الصندوق الأغبر

بالرأس الأحمر في حزم ...

هذا آخر عود ثقاب في حافظتي ...

لم يتوهـــج !

أحمد خالد توفيق 1988

6- أغنية الحافلة......

الليل البارد بالخارج ..

والدفء الناعس بالداخل ...

وهدير الحافلة اللهفى كي تبلغ أفقاً مجهولا..

****

أمتص لفافات السلوى ..

ومزاح الأصحاب الذابلْ..

وتدندن روحي أغنيـــــة..........

****

عذباً كملاك يترنم ..

عذباً كطفولة أمسية...

ينعس وجهك في مرآتي ..

بزجاج النافذة البارد..

أتنهد ..

يصّاعد بخري ..

يلتف برفق من حولك ..

ويدندن عمري أغنيــة ..

والضوء الناعس بالداخل..

وظلام الرهبة بالخارج ..

كانت ..

تتلاقى عينانا ..

يرتفع الحاجب في دهشة..

يتجعد في حنق ساذج ..

وتدندن ذاتي أغنيــة !

****

متر يفصلنا لا أكثر ..

قد يخفي فيه الأعواما ..

قد يحوي فيه الأميالا ..

قد يهزم آلاف الأسطر ..

لكن لم يتجاوز مترا....!

قل لي يا عصفوري الأسمر:

هل يوجد أحلى من هذا ؟

هل يوجد أقسى من هذا ؟

متر يفصلنا لا أكثر ..

****

صوت يوقظني ..

يخبرني ..

أنا أنهينا رحلتنا ..

عبر الطرقات الشتوية ..

في صمت أنزع اكفاني ..

ويدندن يأسي أغنية ..!

7- من دونـــــك......

من دونك لن أزعم أبداً..

أني أتنفس من دونك ..

****

حقاً.. ما زالت أبياتي

تتسكع في أرض الذكرى ...

ما زال الشعر يدغدغني ..

وتعربد في قلبي نشــوة..

لكني

- عفواً يا قلبي -

أدري في ركن من قلبي ..

أني ما يبقى من عمري ..

أحياه وحيداً..

من دونك ...

****

من دونك

أهذي ..

أتثاءب ...

أكتب أبياتاً ..

أتعثر ..

ولبضع ثوان أتمادى ..

ولبضع سنين أتقهقر ..

من دونك ..

لا اشعر حزناً..

هل يملك قبر أن يشعـر ؟

****

شيء كالأنفاس الحمقى ..

تتلاحق في صدر مقفر ...

أحياناً أهمس: لا جدوى ..

لكني أجهل معناها ..

من دونك ما معنى (جدوى) ؟

****

أحياناً .. أضحك ..

أتناسى ..

أهمس ألفاظاً وسنانة.

وأخط عبارات الشكوى ..

من فوق جدار الزنزانـــــة ..

****

من دونك ..

نبض مغمور ..

لا يجسر أن يدعى نبضاً ..

يغفو في صدري أحياناً..

يغزو شرياني أحياناً...

يوقظني في جوف الظلمة ..

يخبرني ..

أني من دونك ...

من دونك ..

حقاً لن أزعم

أني لن أحيا من دونك ..

لكني أتألم حقاً ..

أتلاشى في الظلمة حقاً..

ولأني أحببتك حقاً..

أطبق أجفاني منهوكاً..

وأهيب بقلبي أن يفهم ..

ما معنى ..

أن أحيا دونك !

أحمد خالد توفيق 1985

8- نســــــرين.......

النون نهر والمصب مدامعي

فإذا سمعت خرير نهري فارجعي

والسين سهل فيه فرسان الجوى

والراء رمح أنشبوه بأضلعي

والياء ياقوت تبدى فيهما

عيناك إذ أعلنت ساعة مصرعي

والنون ناقوس يدق مجلجلاً

صرخاته اللهفى تهيب لتسمعي

*****

نسرين ذات من عبير صاغها

رب الجمال بكل سحر مبدع

نسرين ريحان يدب على الثرى

نسرين لحن يستهين بأدمعي

أحمد خالد توفيق 1975

9- أغنية المباحث .

ذكر المخبرْ ..

في صدر التقرير الثاني من اوراق ملفي الأغبرْ..

أني أعشق !

****

ذكر المخبرْ

أني أتنهد أحيانًا

وأكفكف دمعي أحيانا ..

وبأني (في الشهر الجاري)..

أتلاشى في جوف الظلمة.. وأدندن أحلى أشعاري ...

وبأني إذ أرجع ليلاً

لا تغفو ليلاً أنواري !

****

قال المخبر..

إن المذكور يحيرنا ..

صاحبة الشرفة لا تعرف أية أنشطة مشبوهة..

لكنا (قمنا باللازم) ..

وعرفنا لون وسادتها ..

وبأي عبير تتعطر ..

(نرفق طيًا صورتها وملفًا عنها)..

****

قولي لي يا توءم روحي ..

يا من في عينيك صبوحي ..

أنى تتلاقى عينانا

وأمامي وورائي مخبر ؟

****

قال المخبر

في صدر التقرير الثالث من أوراق ملفي الأغبر..

إني أعطيها أوراقًا تخفيها عن كل الأعين ..

أوراقًا تكسوها أسطر !

(يبدو منشورًا موبوءًا يتلاعب بنظام الدولة ..

أركان اللعبة تتبلور)..

****

ذكر المخبر ..

أني أسهر ..

والسر الهامس في قلبي قد أسى إعصارًا يجأر ....

أوصى المخبر ..

في ذيل التقرير الخامس:

لن يخدعني ما يحسبه غيري عشقًا ..

إني أبصر ..

شيئًا يترصد في الظلمة ..

يتلاعب بنظام الدولة ..

إن المذكور يناجيها ..

ولهذا أوصي أن تبقى كوسيلة ضغط فعالة ..

كي نضمن أن يعمل معنا ..

كتب المخبر ..

تلك الأسطر ..

واختار لها لونًا أحمر ..!

****

وملفك يغفو فاتنتي بجوار ملفي

نتناجى ..

من بعد عذابات الرحلة ..

قد جمعّنا أمن الدولة ..

قولي لي يا توءم روحي ..

يا من في عينيك صبوحي ..

أنى تتلاقى عينانا

وأمامي وورائي مخبر ؟

أحمد خالد توفيق 1988

10- الآن قد نام قلبي .

الآن قد نام قلبي

رحماك.. لا توقظيه

قد كان يومًا عصيبًا

في صدر هذا السفيه

والآن يغفو كئيبًا

بالله .. لا تزعجيه !

******

صبي عتابك همسًا

إن كان ما تبتغين

أو كان هذا جدالاً

فلترجعي بعد حين

الآن يغفو فؤادي

من بعد سهد السنين

******

كم من خطوب وحزن

قد ذاق هذا الغرير..

قد جاب صحراء روحي

بين المنايا يسير

ما نال إلا قروحًا

ما ذاق إلا شرورْ

******

الآن قد نام قلبي

فلترجعي في الصباح

لا قول عندك يجدي

ما نفع هذا الصياح ؟

قد عاش قلبي دهورًا

يقتات طعم الجراح ..

******

إن كنت تبغين هجرًا

فلترحلي في هدوء !

أو كنت تبغين وصلاً

فادني بقلب جرئ ..

يكفيك ما كان منك

في حق هذا البريء

******

الآن قد نام قلبي..

فلترجئي كل قول ..

أحمد خالد توفيق 1984

11- مفتــــــون.

أنا مفتون بك

ومهما كنت أو صرت

أحبك مثلما أنت

فلا تتغيري أبدًا

وكوني دائمًا أنت

****

رأيتك تعبرين الدرب

وحدك زهرة ظمأى

ونهر الحب في الأعماق

يدنو منك لا ينأى

رأيتك تلثمين الناس

والأضواء في صمت

وبين براثن الطرقات

لا تدرين ما يأتي

وكانت طفلة تبكي

على الإفريز مهجورة

إذا نظراتك الملساء

طوفان من الحيرة..

بعيدًا أنت تنسابين

والأنظار تفترسك

وداعًا طفلتي السمراء

حقًا .. سوف أفتقدك !

****

رأيتك قد رسمت الزهر

فوق غلاف كراسك

وغم سذاجة التكوين

أهوى دفء إحساسك ..

وحول الدفتر البراق

تلتف اليد الخجلى

كأنك تحتوين العمر

والأفكار أن تبلى

وجاءت نسمة سكرى

تداعب ثوبك الأزرق

فهبت كفك العذراء

تسكتها . ولم ترفق

وفوق جبينك الوضاء

تعبث خصلة نشوى

رفعت الكف في ضجر

لتمنعها .. بلا جدوى !

****

بعيدًا أنت تنسابين

والأنظار تفترسك

وداعًا طفلتي السمراء

حقًا .. سوف أفتقدك !

أحمد خالد توفيق 1984

12- حيرة عابـــــرة .

لماذا أنا دون غيري لماذا ؟

أحبك حبًا كئيبًا كهذا ؟

أقاسيك وحدي

أعانيك وحدي

وأحيا مماتي مرارًا ..

لماذا ؟

****

هنالك في الكون حشد سوايا

يعيشون ذات فصول الرواية

يحبون مثلي ملاكًا أثيمًا

تغرد في مقلتيه الغواية..

يغنون مثلي

ويبكون مثلي

ولكنهم لن يعانوك مثلي

لأنك لست كباقي الخطايا !

لأنك لست كمثل الجميع ,,

فهن الشتاء وأنت الربيع !

وأنت الجحيم الصفيق البديع !

****

لماذا التقينا ؟

وكيف امتزجنا ؟

لماذا بدأنا نشيد النهاية ؟

لماذا أرى العمر في مقلتيك وأهديك حبًا كئيبًا كهذا ؟

لماذا أنا دون غيري أحبك ؟

لماذا أنا دون غيري ؟

لماذا ؟!!

أحمد خالد توفيق 1980

13- كوثـــــــــر .

ولا أدري لم الترحال يرجعني لذكراها ..

كأني اعبر الأعوام والأميال في لحظة ..

وأبحر في عباب الشوق

كي أرتاد دنياها ..

****

ولا أدري لم الترحال يوقظ في أحاسيسي ..

حنينًا مات من دهر وولى سحره القاسي ..

وترجع لهفة الأطفال للأحلام في لحظة ..

فأذكر كم عشقت العشق

كم غنيت أهواها ..

****

ووسط مقابر الأيام ينعس وجهها الأسمر

وحيث دفنت في السلوى

ألوفًا..... ربما أكثر !!

وجدت القبر مفتوحًا ..

وتلك رفات قصتها

برغم الدهر لم تُنخر !

****

لكم ناجيت صورتها ..

وكم حدثت ضحكتها .. وكم أسميتها (سكر)..

برغم عواصف الأيام اذكر اسمها أيضًا ...

يذكرني من الفردوس نهرًا من نهور النور ..

قد كان اسمها :

كوثر ..

****

ولا أدري لم الترحال يرجعني لذكراها ..

كأن الحب في الأعماق مهما خلته ولى ..

كأني قد دفنت هناك نبعًا من أحاسيسي ..

ومهما ذبت في الأرجاء

مهما ذبت في الناس .....

سأرجع كلما أدركت أني لم أزل طفلاً..

وأني لم أزل أشتاق

دفء حنانها القاسي ..

أحمد خالد توفيق 1978

14- لحظة الحقيقة.....

حاولي أن تفهميني

لا تزيدي من أنيني

جففي أمطار حزنك وانصتي لي واسمعيني ..

*****

أنت عصفور كسير لم يجد في الكون حبا ..

عشت تشتاقين قلبًا مرهفًا

يحنو عليك

عشت تشتاقين كفًا

تدفنين بها يديك

عشت تحتاجين حبًا ..

فوق نفس الدهر سرنا

والتقينا

صرتُ صبًا !

كنت عاطفة وحسبي ..

كنت سحرًا ..

كنت عشقا ..

كنت قلبًا ما أحبّاً!

*****

حاولي أن تفهميني

لا تزيدي من أنيني

جففي أمطار حزنك وانصتي لي واسمعيني ..

إنما الصدق جواد

فوق صخر العطف يكبو .

والحقيقة كاللهيب

في سيول الدمع تخبو ..

*****

حاولي أن تفهميني

لا تزيدي من أنيني

إنما الأحزان قبر

فيه تنطمر الحقائق تحت أقدام المنون..

إنما الشهقات درع

منه ترتد الصراحة ..

نحو صدري...

صدقيني ..

*****

حاولي أن تفهميني

لا تزيدي من أنيني

جففي أمطار حزنك وانصتي لي واسمعيني ..

ساعديني ..

كي أحررنا سويًا من دهاليز الجنون .

لو جبنت اليوم ضعفًا

من توسلك المحبب..

من نداء في العيون ..

سوف يبقى كل شيء ..

سوف يحيا كل شيء .

سوف تخنقني الحقيقة ..

حاولي أن تفهميني ..

أحمد خالد توفيق 1981

ملحوظتان:

- توجد أخطاء شبه قاتلة لكني كرهت أن أصححها بعد كل هذه السنين .. مثلاً (سويًا) لا تعني (معًا).. كذلك لا توجد لفظة (تحتاجين) من دون حرف جر بعدها .. لنقل إنها السن .. لنقل إنها الضرورة الشعرية !
- منذ عشرين عامًا قام صديق لي هو د. أحمد لطفي بتلحين هذه القصيدة، واللحن لا يمكن التعبير عنه إلا بسماعه .. سأحاول العثور على طريقة لوضعه هنا.

15- الشـــيطان......

قد كان – صغاري – شيطانًا

لا يملك سحر الشيطان ...

****

أعرفتم شيطانًا أبله ؟

قد يوجد شيطان يلهو ..

يغريك بأحلام سهلة ..

قد يوجد شيطان يعبث ببقايا جلباب أبيض ..

لكني – أحبابي – أعرف

أسطورة شيطان أبله ..

****

قد جاء الدنيا مأفونًا

يحسبنا أطفال اللحظة .

تغوينا مشية غانية ..

أو جرعة خمر معسولة ..

أو حتى تخدعنا لفظة ..

ذاك الأبله !..

يحسبنا ما زلنا نحيا

عصر التفاحة والأفعى ...

****

في عصر البيتلز والهيبز

وزواج رجال برجال ..

في عصر الإلحاد المطلقْ ..

لن يخدعنا ..

إلا شيطان يتأنقْ..

يتخير لون جواربه .

في العين نجوم تتألقْ ...

ما معنى أن يأتي فينا

شيطان ملتاث منهك ؟

الشر كئيب يا سادة .

والفقر كريه يا سادة .

ما أقبح شرًا لا يملك !

****

قد يصرخ

إني شيطان !

لكن الفاقة تمنعني أن أبدو مثل الشيطان !

قولوا:

في عالمنا المترف .

الفاقة إلحاد سافر ..

أن يظهر فينا شيطان

ذو لحية تيس وحوافر ..

هذي سخرية نمقتها ..

هذا تجديف بالباطل ..

****

قد كان صغاري شيطانًا

لا يبدو مثل الشيطان .

ولهذا لم يقنع أحدًا ..

ولهذا لم يخدع أحدًا ..

ولهذا نرجمه الليلة **!!**

أحمد خالد توفيق 1984

16- لمـــــــاذا ؟

لأن الحزن في عينيك ينسج لحنه السامي

لأني في مداد الدمع قد ضمّخت إلهامي

لأني أقتفي الآلام منذ أتيت للدنيا

تخذتك زهرتي السمراء ينبوعًا لإلهامي

كأنك همسة القيثار نستجدي مدامعها

فتسري في ثنايا الليل .. تحبو في شراييني

لأنك صورة للوجد في أنقى منابعها

بتولاً مثلما الأطياف .. في صمت وإذعان

أردتك معبدًا للحزن تسخو فيه أدمعنا

أردتك صورة للوجد .. رمزًا ..ربما معنى .

أردتك مهجة الآلام في دنيا ترانيمي

أحمد خالد توفيق 1982

17- شـــــرايين تاجية ..

قد شاب صغيرك يا أمي ..

ما عاد بريئًا يا أمي..

ولكم قد هادن وتراخى

ولكم قد نافق وتنازل ..

ولكم داهن !

****

صدأ الأعوام يغلفني

وغبار الرحلة يعميني ..

أبخرة التبغ مع الحسرة

تتسرب من صدري الفاني ..

حقًا

قد واجهت الدنيا ..

حقًا

قد حاربت الدنيا ..

هزمتني ..

لم أفهم هذا ..

ومضيت أغني ألحاني ..

سحقتني الدنيا لكني

لم أعلن هذا يا أمي !

****

قد شاخ صغيرك يا أمي ..

ما عاد صغيرًا يا أمي ..

قد غادر مهدك كي يعرفْ

لكني حقًا لم أعرفْ

ابتعت فراء الحملان..

جربت مسوح الرهبان..

ولبست دروع الفرسان ..

لكني

ـ أقسم يا أمي -

لم أخدع إلا مرآتي ..

حتى في ثوب الشيطان

لم أدرك معنى لحياتي ..

ولعمري هذي مأساتي ..

****

سيموت صغيرك يا أمي ..

أحلام شبابي أضنته

وقروح الماضي أدمته ..

أجتاز مدينة إحباطي

إكليل العار على رأسي !

إني أحيا

حقًا أحيا !

وبرغم تخاريفي أحيا

وبكل أكاذيبي أحيا ..

وبدون طموحاتي أحيا ..

والناس جميعًا إن كانوا

قد هزموا في الدنيا مثلي .

إن كانوا قد كذبوا مثلي ..

فبأية معجزة ننسى ؟

وبأية معجزة نحيا ؟

أجيال

قد هُزمت قبلي ..

وستُهزم أجيال بعدي ..

فلماذا

ـ عفوًا يا أمي ـ

يكسوني العار أنا وحدي ؟

****

كي أكمل هذي الأغنية

لا يوجد عمر يكفيني ..

أنواء الليل تحاصرني ..

وتضيق

تضيق

شراييني !

أحمد خالد توفيق 1987

18- تبذلي ...تبذلي .

تبذلي .. تبذلي !

جرثومتي .. لا تخجلي ..

من قبل ميلاد النجوم، وقبل إيجاد الشهب..

قد كنت أخفق كالفراشة حول أوهام اللهب ..

قد عشت أبحث عن حصار من تخاريف الأدب ..

قد عشت أبحث عن سُدى ..

فغدوت منك

وصرت لي !

****

تبذلي .. تبذلي

أرجوك ألا تخجلي..

فلقد سئمت عواطفي .. وسئمت طول تبتلي .

كوني سوى ذاك الملاك العذب كنسيم السحر .

كوني زبانية الجحيم تجيء غضبى من سقر ..

كوني الشتاء وفي الشتاء

تموت كل بلابلي ..

كوني الوقاحة ذاتها ..

كوني التحدي والردى

كوني سواك

ولا تعيشي ..

لا تعيشي داخلي !

تبذلي .. تبذلي

يا طفلتي لا تخجلي..

فلقد مضيت كما الوباء تكهربين أناملي ..

هيا اهزمي روحي التي – ولطالما – جادلتها

ولكم تهاوت ثورتي سكرى أمام دموعها ..

فلتمض هالات السمو

أمام ظلمة قسوتك ..

ولتمحُ ضحكات المجون الفظ سحر براءتك ...

فلتمنعي عني الأمل

ولتنفضي عنك الخجل ..

حتى إذا قال الفؤاد مع الدموع: أريدها !

ألفيت فيك من الشرور أحطها وأشرها ..

وأروح أبحث عن فتاة من أهازيج الضحى

مثل التي قد كنتها ..

فإذا بقلبي لا يرى

إلا جحيمًا ساخرًا

ما كان يحسب نورها ..

****

تبذلي .. تبذلي !

جرثومتي .. لا تخجلي ..

أحمد خالد توفيق 1983

19- صبـــــــاح الخـــــــير ....

"صباح الخير "

قالتها ..

وهزت رأسها عجلى ..

لنصف دقيقة لم أدر

ماذا صار من حولي ..

هززت الرأس مفتونًا

وقلبي نبضه المسكين يهتف خاشعًا .. وجلا:

-"صباح الخير ساحرتي !"

إذا بالمد ينثرني ..

ويطويني .. وينشرني ..

وإذ بسحابة كالموت تحملني إلى أعلى .

لكم قالوا عن الكلمات والآهات واختلفوا ..

ولكن في أحاسيسي

تقوم الثورة الكبرى

بثغر من كروم الحلم يبسم بسمة خجلى ..

****

"صباح الخير "

ألقتها ..

ولم تدر الذي صارا ..

بأحرفها التي ألقت نما الريحان أشجارا ..

وفوق مآدب الأحلام سال الخمر انهارا ..

"صباح الخير "

قالتها ..

فشكرًا أيها القدرُ ..

لنصف دقيقة أدركت كيف الموت يحتضرُ !

وكيف بلفظة خجلى

بلا معنى

ولا مغزى

تعود الشمس في صدري ..

وأوقن أنني بشرُ !!

أحمد خالد توفيق 1981

1- كتب غيرت العالـــــم ......

هناك كتب وكتب .. هناك كتب نعيش فيها وكتب تعيش فينا .. هناك كتب للاستهلاك على طريقة الـ take away، وكتب سريعة البخر، وكتب كالضيف العابر باهت الشخصية غير المؤذي غير المؤثر .. هناك كتب تحفر نفسها في تجاعيد مخك، وكتب تزرع نفسها بين الصبغيات في خلاياك ..

عن الطراز الأخير من الكتب أتحدث هنا..

كتاب اليوم هو (كتب غيرت العالم) بقلم (روبرت ب. داونز) وترجمة (أمين سلامة). الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1977، وكان سعره وقتها خمسة وثمانين قرشًا.. هذا يخبرك بوضوح أن أبي هو من اشتراه لأني كنت وقتها في الصف الثالث الثانوي. كتاب ممتع بحق وسوف تطالعه من الغلاف الأول إلى الغلاف الأخير، لو وجدته طبعًا .. إن هذه القوائم على غرار (أهم مائة شخصية) أو (أفضل عشرة أفلام رعب) تكون خرقاء غالبًا ولا ترضي أي طرف.. وهذا الكتاب يندرج تحت هذه النوعية، لكن لا ننكر أن اختياراته كانت موفقة إلى حد كبير. كذلك يجب أن نذكر أنه قصر اختياراته على الكتب التي أبدعها البشر لا على الكتب الدينية، وقد راق لي هذا حتى لا ندخل في أخطاء سخيفة أو وقحة مثل ذلك الكتاب الشهير الذي وضع السيد المسيح بعد شكسبير في ترتيب الأهمية !. يمكن أن أتصور شعوري كمسلم لو وجدت أن هذا الكتاب وضع القرآن بعد الإلياذة مثلاً. هكذا توصل المؤلف إلى قائمة من 16 عنوانًا اعتقد أنها الأهم والأكثر تأثيرًا لا في امة واحدة بل في أكبر جزء من العالم. ومن علامات هذه الشهرة أن يتحول اسم المؤلف إلى مصدر أو صفة على غرار (الماركسية). (النيوتونية) .. (الميكافيللية).. (الداروينية)..

كما أن تأثير هذه الكتب تراوح بين التأثير الفوري أو التأثير الذي تأخر أعوامًا (مثل مؤلفات ثورو وآدم سميث).. بعض الكتب لا يتجاوز حجمها حجم نشرة (مثل الإدراك العام) وبعضها ضخم مرهق (مثل كتاب مبادئ الرياضيات).. بعضها كتب في ثلاثين عامًا (مثل كتاب كوبرنيكوس) وبعضها كتب في ستة اشهر (مثل كتاب الأمير).. بعض الكتاب كان شابًا (مثل أينشتاين) وبعضهم كان شيخًا (مثل كوبرنيكوس).. على أن ذروة الإبداع عامة تقع بين سن 44 إلى 54 ..

الكتاب الأول هو (الأمير) لميكافيللي: هذا الكتاب الذي أحدث جدلاً واسعًا وصار مرادفًا لصفة الانتهازية، كتب عام 1513. والمؤلف يرى أن هذا الكتاب شديد الأهمية وأكثر السمعة السيئة التي اكتسبها هي ظلم له. إن الكتاب خرج من كاتب غيور على وطنه أراد أن يرى إيطاليا موحدة قوية، لذا قدم خلاصة تجاربه السياسية إلى الأمير (لورنزو دي مديتشي) .. يعلمه كيف يحصل على السلطة ويحتفظ بها مهما كان الثمن. ويرى الكاتب أن الرجل بحق هو مؤسس علم السياسة..

الكتاب الثاني هو (الإدراك العام) لـ (توم بن): كتاب شديد الأهمية في تاريخ أمريكا. وهو الذي ألهب المستعمرين نارًا كي ينفصلوا عن إنجلترا. من هنا جاء الاستقلال.

الكتاب الثالث هو (ثروة الأمم) لـ (آدم سميث): (آدم سميث) اسم بالغ الأهمية بالنسبة لكل مهتم بالاقتصاد. إنه يعتبر بفضل هذا الكتاب أبو الاقتصاد الحديث، وهو من دعا إلى الاقتصاد الحر . لا يمكن تلخيص الموضوع لكنه أروع ملخص عن هذا الكتاب.

الكتاب الرابع هو (أفواه كثيرة) لـ (توماس مالتوس): هذا الكتاب كتبه (غراب البين) الذي هدم الأحلام الجميلة عن مستقبل باهر للبشرية .. لقد بشر بأن الوضع يسير إلى أسوأ لأن البشر يتزايدون بمتوالية هندسية بينما الموارد تتزايد بمتوالية عددية .. بالتالي سيأتي اليوم الذي تجوع فيه البشرية ويقل عددها من جديد. طبعًا برهنت موارد التكنولوجيا عن قدرة الدول المتقدمة على زيادة انتاجها وتحسينه .. ازدادت انتاجية الأرض بما لا يقاس، إلا أن بعض كلامه دقيق بالنسبة للدول النامية لأن التقدم فيها لا يواكب زيادة السكان المرعبة.

الكتاب الخامس هو (العصيان المدني) لـ (هنري ثورو): التمرد الأول على الحكومات والذي ألهم غاندي بكيفية مقاومة الاستعمار الإنجليزي.. إن الحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئًا من دون شعب .. كان ثورو يمقت الحكومات لكنه لم يكن فوضويًا ..

الكتاب السادس هو (كوخ العم توم) لـ (هارييت بتشر ستو): الكاتب متحمس للكتب الأمريكية وهذا طبيعي.. لكن هذا الكتاب فجر قضية تحرير الرق في أمريكا وأدى بشكل ما إلى نشوب الحرب الأهلية .. لا شيء كالأدب يجعلك تتبنى قضية أبطال سود يباعون كالحيوانات من يد ليد .. كتاب كتبته امرأة فغير تاريخ أمريكا.

الكتاب السابع هو (رأس المال) لـ (كارل ماركس): الكتاب الصعب المعقد الذي أدى لأهم انشقاق عقائدي في العالم وأدى لحرب باردة طالت نحو قرن، وأدى لأشهر ثورات القرن العشرين .. لقد تحولت لفظة (ماركسية) إلى لفظة لها ذات قوة الدين .. هذا كتاب غني عن التعريف وإن كان قليلون جدًا قد قرءوه كاملاً..

الكتاب الثامن هو (كفاحي) لـ (أدولف هتلر): كتاب غني عن التعريف يمثل خطة هتلر المجنونة التي نفذها حرفيًا .. هذا الكتاب كتبه هو وفي السجن وقد اعترف ساسة أوروبا بأنهم كانوا حمقى لأنهم لم يقرءوه أو لم يقرءوه بجدية .. إنه خليط مجنون من الطموح والاستراتيجية والعنصرية والتاريخ والتنبؤ .. هذا الكتاب كلف العالم ملايين القتلى ..

الكتاب التاسع هو (انقلاب في الأفلاك) لـ (كوبرنيكوس): الكتاب الذي هز العالم حينما أعلن أن الأرض ليست مركز الكون بل هي مجرد تابع يدور حول الشمس .. وقد لاقى حربًا دينية عنيفة ..

الكتاب العاشر هو (حركة القلب) لـ (ويليام هارفي): ثورة أخرى في علم الفسيولوجيا .. الدورة الرئوية وإثبات كيف أن القلب لا يصنع الدم بل يضخه إلى الرئتين ثم يستعيده ويضخه إلى الجسد. بالنسبة لنا نحن العرب نعرف جيدًا أن هذا الكشف ليس أصيلاً وأن (ابن النفيس) توصل إليه قبل مئات الأعوام، ولا يوجد أي تحزب زائف في هذا .. لكن هذا الكتاب كان قنبلة بالنسبة لعلمي التشريح ووظائف الأعضاء.

الكتاب الحادي عشر هو (الأسس الرياضية) لـ (نيوتن): كل ما نعرفه من قوانين نيوتن ولدت في هذا الكتاب الذي كتبه باللاتينية ليتجنب الجدل الفارغ من غير المتخصصين. سوف نعرف حقيقة أن نيوتن كان كارهًا للجدل عازفًا عن المعارك فلو لم يتدخل الفلكي الشهير (هالي) – مكتشف المذنب المعروف باسمه – لما خرج هذا الكتاب للنور، ولسوف نجد أن (نيوتن) لم يكن ممن يجيدون التعبير عن أنفسهم مثله مثل (داروين).

الكتاب الثاني عشر هو (أصل الأنواع) لـ (داروين): كتاب آخر أحدث صخبًا لم يتوقف .. إن أبحاث داروين في جزر (جالاباجوس) جعلته يصل لنظرية التطور والارتقاء وهي نظرية معقدة لا يمكن تلخيصها بأن (القرد هو أصل الانسان).. لكنه تلقى هجومًا شديدًا وإهانات لا بأس بها . وهنا يلعب (هكسلي) مع (داروين) ذات الدور الذي لعبه (هالي) مع (نيوتن).. إنه الخطيب المفوه حاضر الحجة الذي يدافع عنه وسط المحافل. ينظر لداروين وفرويد

وماركس على أنهم المثلث اليهودي الذي سعى لخراب البشرية، ولا أوافق على هذا بأي حال.. إنهم علماء حاولوا وأصابوا وأخطأوا.

الكتاب الثالث عشر هو (تفسير الأحلام) لـ (فرويد): كل ما كتبه فرويد أحدث ضجة وجلبة وغضبًا عارمًا .. وهذا الكتاب غني عن التعريف على كل حال ..

الكتاب الرابع عشر هو (النسبية) لـ (أينشتاين): هذا هو مسك الختام.. النظرية التي هزت العالم والتي لم يفهمها الكثيرون لكن لديهم فكرة عامة عما تعنيه .. بعض نظريات أينشتاين تم دحضها لكنه فجر لغمًا قويًا في بحر الرياضيات الراكد منذ عصر نيوتن.

كما ترى الكتاب مهم جدًا ولن أتنازل عنه إلا بعد موتي .. وعندها يمتلكه ابني .. صحيح أن هناك خللاً ما في جمعه مما أدى لوجود بعض الجمل غير المفهومة، لكنه متعة لا يمكن وصفها.. لا أعتقد أنني سأقرأ (أصل الأنواع) أو (النسبية) يومًا لهذا أحتاج إلى من يعرضهما علي عرضًا أمينًا .. فيما عدا هذا يمكنك أن تجد نصوص هذه الكتب جميعًا على الإنترنت.

2- فن القصـــــة القصيرة.......

هناك كتب وكتب .. هناك كتب نعيش فيها وكتب تعيش فينا .. هناك كتب للاستهلاك على طريقة الـ take away، وكتب سريعة البخر، وكتب كالضيف العابر باهت الشخصية غير المؤذي غير المؤثر .. هناك كتب تحفر نفسها في تجاعيد مخك، وكتب تزرع نفسها بين الصبغيات في خلاياك ..

عن الطراز الأخير من الكتب أتحدث هنا..

اختلف كثيرون حول الدكتور (رشاد رشدي).. والسبب أن اسمه يذكر دائماً – مع د. (محمد عناني) و(يوسف السباعي) وغيرهما – مرتبطاً بالثورة المضادة التي قام بها السادات لتصفية كتاب الستينات. إن كتاب الستينات رمز مهم من رموز الناصرية، وقد كانت لهم السيطرة على الحركة الأدبية حتى أطيح بهم في حركة التصحيح التي يختلف البعض حول قيمتها وصدقها. وأنا ناصري أقرب إلى التعصب، لكن هذا الكتاب وقع في يدي في سن لم أكن أعرف فيها تلك الخلفيات؛ مما جعلني أقرؤه بتجرد من حيث قيمته ككتاب له وجوده المستقل المتفرد، وبلا أية تحيزات أيديولوجية مسبقة. في ذات السن تقريباً شاهدت أوبرا (عيون بهية) التي كتبها الدكتور (رشاد رشدي)، وبرغم سني الحديثة فقد أدركت أنها سخيفة.

لكن هذا الكتاب كان عصا الساحر التي أوقعتني في هوى القصة القصيرة، وجعلتني أعرف بالضبط عناصر ومقادير الطبخة التي تصنع هذا الفن الساحر. أنا مدين لهذا الأستاذ العظيم بطريقته السهلة المرنة التي ظلت تعيش داخلي طويلاً. هذا – إذن – من الكتب التي أحسبها قد وجدت طريقها إلى خلاياي لتقيم هنالك للأبد.

اسم الكتاب هو (فن القصة القصيرة). الطبعة الأولى صدرت عام 1959 عن مكتبة الأنجلو المصرية شارع محمد فريد، وتتكون من 192 صفحة. لطباعته ذات الطابع الرخيص العملي المغري بالقراءة والمميز لكتب الستينات، كطابع أغاني (أم كلثوم) القديمة مقارنة بأغاني (أليسا) المبهرجة بالتكنولوجيا. والسعر الذي ابتاعه أبي به مكتوب على الغلاف: ثلاثون قرشاً، وهو ثمن باهظ طبعاً بمقاييس تلك الأيام.

منذ اللحظة الأولى يخبرنا الكتاب بحقيقة صادمة: القصة القصيرة ليست بالضرورة قصيرة في عدد الصفحات.. هناك روايات كتبت في خمس صفحات، وقصص قصيرة كتبت في مائة صفحة. ثم يحكي لك نبذة مهمة عن تاريخ نشوء هذا الفن منذ القرن الرابع عشر في أوروبا في شكل فني اسمه (الفاشيتيا). ثم ظهور الأب الحقيقي للقصة القصيرة (جيوفاني بوكاتشيو) بقصصه (الديكاميرون) التي تحكي عن رجال ونساء التقوا في قصر أحدهم أثناء انتشار وباء الطاعون، وقرروا أن يحكوا قصصاً قصيرة اسمها (النوفلا) لتزجية الوقت. وهي قصص تتحدث في الغالب عن الخيانات الزوجية ونهاياتها هي الموت أو الزواج.

ثم جاء العملاق الفرنسي (موباسان) في القرن التاسع عشر وشعاره هو: لنحك قصصاً عن أشخاص عاديين في عالم عادي. وكان يرى أن المهم هو (اقتناص اللحظة).. لحظة قصيرة عابرة في حياة أناس عاديين تصلح لتكون قصة. أما إذا أردت أن تعرف كل شيء عن الأبطال بعد هذه اللحظة فسبيلك هو الرواية لا القصة القصيرة يا صاحبي.

نأتي الآن إلى تشريح القصة ذاتها:

أولاً يجب أن تقص القصة أخباراً.. ويجب أن ترتبط هذه الأخبار ببعضها.. ويجب أن يكون للخبر بداية ووسط ونهاية.. هذه هي القواعد الأرسطوطالية منذ قديم الأزل. أية محاولة مفتعلة لربط أخبار غير مترابطة منطقياً هو ما أطلق عليه أرسطو اسم (القصة الخبرية)..ومكانها سلة مهملات القصص.

وهنا نلاحظ مزية مهمة في الكتاب هي أنه لا يكف عن تقديم قصص قصيرة كاملة كأمثلة. وهي أمثلة واضحة جداً وغير متعالية. ثم يخبرنا الكاتب بالحقيقة التي لم أنسها قط: القصة الجيدة لا يمكن تلخيصها.. أما القصة الخبرية فيسهل ذلك لأنها لا تزيد على مجموعة أخبار. وهي تكتفي بتقديم الفعل دون الفاعل ولا المفعول به.

ولتوضيح مثاله يقدم لنا قصة (في ضوء القمر) وهي تحفة من تحف الفرنسي (جي دي موباسان).

بعد هذا ينتقل د. (رشاد) إلى توضيح أن القصة القصيرة يجب أن يكون لها معنى يرمي له الكاتب في النهاية. يجب أن يحاول أن يقول شيئاً ما ..كل تفاصيل القصة ترمي إلى نقطة واحدة هي التي كتبت القصة من أجلها.. هذه هي (نقطة التنوير).

وكما هي العادة لا يتركنا حائرين نتظاهر بالفهم، بل يقدم لنا قصة قصيرة مفككة لـ (سومرست موم) وقصة قصيرة محكمة لها نقطة تنوير واضحة لـ (كاترين مانسفيلد). أحياناً ما أشعر أنهم يتحاملون على (موم) لكن القصة التي أوردها د. (رشاد) في هذا المثال فاضحة فعلاً. لقد تهاوى سيد القصة البريطاني الوقور أمام ضربة صائبة من الفتاة الرقيقة المريضة (كاترين مانسفيلد).

من دون نقطة التنوير تظل الخيوط كلها معلقة ولا معنى لها .. ثم تأتي نقطة التنوير فنفهم: رباه !... هذا ما كان يريد قوله منذ البداية !.. ونقطة التنوير هي أهم ما يميز القصة القصيرة عن الرواية. الرواية تقوم على التجميع وتأخذ راحتها في الوصف، أما القصة القصيرة فمهمتها التركيز. الرواية تتابع النهر من النبع إلى المصب، بينما القصة القصيرة تهتم بدوامة واحدة على صفحة مياهه.

يقدم لنا من جديد نموذجاً أقوى للكاتب الإيطالي (لويجي برانديللو).

ثم يأتي د. (رشاد) لنصيحة أخرى بالغة الأهمية وينساها الجميع (بمن فيهم أنا): لا تصف شيئاً لمجرد الوصف، بل لأن بطلك يراه كذا ولأن هذا مهم في السياق. لا يعنينا أن تكون الفتاة جميلة إلا إذا رآها البطل كذلك، وكان لهذا دور في الأحداث ..

ويهاجم الكاتب الأدباء الذين يستعملون الفصحى في حوار الشخصيات، لأن هذا يبعد القصة عن الواقعية .. ويرى – ولا أوافقه على الإطلاق – أن استعمال الفصحى في الحوار جزء من تراثنا المتشبث بالجوهر اللغوي.

النصيحة التالية هي: لا تقرر شيئاً يفرض على الشخصيات ... لا تقل إن (إيفان) كان تعساً بل دع القارئ يعرف هذا من كلماته وأفعاله. ويورد لنا قصة (شقاء) لتشيكوف. تلك القصة سعيدة الحظ التي تجدها في كل كتب دراسات القصة القصيرة تقريباً.

على كل حال سوف نلاحظ في الكتاب أن (سومرست موم) ارتكب كل أنواع الأخطاء تقريباً، برغم هذا أجده مسلياً جداً، لذا كونت نظريتي الخاصة عن الموضوع: يمكنك أن تكتب عملاً شائقاً برغم أنك تخالف الكثير من القواعد.

كتاب (فن القصة القصيرة) كتاب شديد الأهمية والإمتاع، ولا أعرف إن كان العثور عليه ممكناً اليوم أم لا، وهل قدمته مكتبة الأسرة أم لا. لكني أنصحك بأن تقتنيه فوراً إذا وجدته في أي مكان.



هناك كتب وكتب .. هناك كتب نعيش فيها وكتب تعيش فينا .. هناك كتب للاستهلاك على طريقة الـ take away، وكتب سريعة البخر، وكتب كالضيف العابر باهت الشخصية غير المؤذي غير المؤثر .. هناك كتب تحفر نفسها في تجاعيد مخك، وكتب تزرع نفسها بين الصبغيات في خلاياك ..

عن الطراز الأخير من الكتب أتحدث هنا..

كتاب آخر من تلك الكتب القديمة التي حفرت نفسها في داخلي.. الكتب التي وصف ستيفن كنج واحدًا منها بأنه (من طراز تلك الكتب التي لا تجدها في المتجر أبدًا .. إنه دائمًا لم يعد يُطبع أو سيعاد طبعه أو أي شيء لعين آخر).

كتاب اليوم اسمه (عيوب التأليف المسرحي) للناقد الأمريكي (والتر كير) وترجمة (عبد الحليم البشلاوي).. أصدرته مكتبة مصر عام .. بصراحة ليس عندي التاريخ لكن الكتاب الأصلي كتب عام 1955.. على كل حال لم أكن أنا من اشتراه ولكنه أبي رحمه الله .. دائمًا أبي حتى أتساءل ماذا كان سيبقى مني لو لم يشتر هو كل هذه التحف ؟...

الكتاب شديد الإمتاع وليس كما يوحي اسمه، وأتحدى أنك ستقدر على تركه لو أمسكت به. مؤلف الكتاب ناقد مسرحي سليط اللسان خفيف الظل، أرهقه حتى الموت كل التحذلق الذي يغزو عالم المسرح .. لقد انتزع العباقرة المسرح من حياة الناس كتسلية أساسية لهم كي يجعلوه علمًا أكاديميًا لا يفهمه إلا المتخصصون .. لم تعد هناك مسرحية مسلية ذات أحداث غريبة تشد الناس لأن السادة العباقرة قرروا أن هذه جريمة .. هذا الكلام ينطبق على السينما والأدب كذلك ..

هذا المسرح المعادي للشعب وجد نموذجه في برنارد شو كما يقول الكاتب .. لقد كره شو المسرح العادي المسلي وراح يبحث عن مسرح يناسب صديقه المثقف (ويليام موريس).. في ذات الوقت ظهر إبسن في النرويج بمسرحه المثقف، فقال شو إن إبسن خسف الأرض بشكسبير وحط من شأنه ..

هكذا استطاعت الدراما الحديثة أن تناقش أعقد المشاكل الثقافية، لكن مقابل هذا تخلى عن المسرح البسطاء أكلة الفول السوداني .. لم تحقق مسرحيات إبسن أي ربح مادي بينما ما زال مسرح شكسبير يحقق أرباحًا .. لقد ولد هذا المسرح المتحذلق ليكون له أعداء شرسون ..

تشيكوف ايضًا من العباقرة الجدد الذين لم يفهمهم الجمهور على الإطلاق لأنه لا شيء يحدث في مسرحياتهم .. هكذا فرت بائعة المتجر من المسرح إلى السينما ليتهمها النقاد بالخيانة والسطحية ..

لقد كان شكسبير برغم كل شيء يضع عينه على شباك التذاكر لذا ملأ مسرحياته بالاغتيال والمبارزات والمصارعة وأشباح وساحرات وعواصف رعدية .. موليير حذا الحذو ذاته في فرنسا .. والغريب أن هذه المسرحيات خالدة، بينما المسرحيات التي كتبت في اكسفورد وكامبردج لم يعد أحد يذكرها ..

يرى الكاتب في الفصل الثاني أن خير طريقة لقتل المسرحية هو إجبارها على إثبات شيء ما .. هناك ثلاثة أنواع من المسرحيات العقلية هي مسرحية المشكلة – مسرحية الدعاية – مسرحية الرسالة ..

مسرحية المشكلة تعرض المشكلة بحياد ثم تنتهي دون أن تتخذ قرارًا .. مسرحية الرسالة تعرض المشكلة ثم تناقش حلها .. مسرحية الدعاية تناقش المشكلة وحلها ثم تحرض الجماهير على هذا الحل .. إن المؤلف المسرحي يريد أن تخرج مظاهرة من المسرح لتقتحم المتاريس ..

هذه الطرق الثلاث تؤدي لإفشال المسرحية، لأن الكاتب يتظاهر بكتابة مسرحية بينما هو في الواقع يدافع عن رأي .. إن جمال الشخصيات وسحرها يتلاشى لأن لدى الكاتب معادلة رياضية يحاول إثباتها: أ هو الخير .. ب هو الشر .. صار الكاتب يجلس ليقول: سأثبت لكم أن كذا هو كذا، بينما يجب عليه أن يجلس ليقول: سأريكم شخصيات مسرحيتي وما تفعله ..

يفعل الكاتب المسرحي هذا ثم يشعر بلذة أنه غير مفهوم وأنه وحده في مستنقع من الجهل ..وكما يقول مؤلف الكتاب: لم يعد الكاتب المسرحي يموت ليبلغ الخلود، بل هو يبدأ حياته خالدًا ! .. إنه يحمل عصا يؤدب بها الجمهور .. وما دام يعتبر المسرح معبدًا فهو يعتبر نفسه قسًا ..

لقد فهم أرسطو ببساطة شروط المأساة المسرحية فقال: هي محاكاة لعمل تام في ذاته هو كل ذو جسامة .. هكذا اشترط وجود الجسامة .. إن الجمهور لم يأت المسرح لمشاهدة رجل يقلب الشاي .. هناك كاتب مسرحي اسمه (ثورنتون وايلد) أصر على أن مسرح القصة انتهى .. كانت لهذا الكاتب مسرحية تعرض في برودواي راقت للنقاد، لكن سائقي التاكسي لاحظوا أن الشغل يزداد كثافة عند نهاية الفصل الأول من هذه المسرحية وراحوا يقفون بسياراتهم أمام المسرح في هذا الوقت بالذات .. السبب هو أنه لا شيء يحدث في المسرحية على الإطلاق .. إنك تتذكرها كاليوم الذي نتذكره لأننا لم نتلق فيه أي خطاب .. لقد تعالى الكتاب على الحدث واعتبروه شيئًا مشينًا .. وارتبط الملل والبلادة بالعبقرية ..

يلوم المؤلف كذلك الكتاب المعاصرين على إفراطهم في البحث عن حلول واقعية (هناك مسرحية كتبت فيها ثلاث صفحات يصف فيها البطل المسكن في الوقت الذي يراه المشاهدون فعلاً) .. في الماضي كان الكورس اليوناني يفرغ من هذه التفاصيل في خمس دقائق .. لو كان شكسبير مضطرًا لهذا في مسرحياته التي تحوي عشرين أو ثلاثين شخصية لكانت أول حفلة في مسرحية الملك لير مستمرة حتى اليوم.

الكتاب المعاصرون كسالى في الكتابة على غرار:

ويليام (بلهجة ذات معنى): أعتقد انك قادم لي هذه الليلة ..

بينما كان شكسبير يحرص على أن تحتوي عبارة الحوار على كل هذا الـ (بلهجة ذات معنى).. إن الكاتب يريح نفسه ويلقي كل شيء على الممثلين .

حيلة أخرى هي تقليد الطبيعة بجمل لا تتم:

جاك: أقسم أن ..

ماري: معنى ذلك أن ....

ويترك لك المؤلف أن تفترض باقي هذه الجمل . مع اكتشاف عبقري آخر هو تعليمات الإخراج:

جاك (بحزن): هل أنت ذاهبة ؟

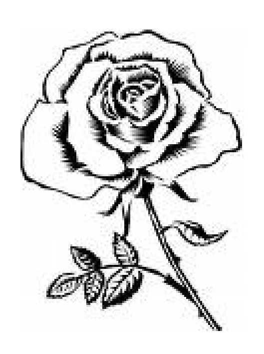
جاك (بدهاء): هل أنت ذاهبة ؟

جاك (في نشوة الفرح): هل أنت ذاهبة ؟

جاك (في نفاد صبر): هل أنت ذاهبة ؟

هذا كنز .. وسوف يستعمل كاتب المسرح هذه الجملة العبقرية في كل مسرحياته بدلاً من أن تعبر كلمات البطل عن العاطفة. فإذا سقطت المسرحية فالعيب في الممثل الذي لم يستطع إبراز كلماته.

الكتاب ممتع كما قلت، وربما أحاول ان ألخصه بشكل أوفى في مقال آخر.



With my best wishes..........**Lonesome**